تمهيد

في أهمية الأرض

الأرض هي الكوكب الأثير الذي يرتبط بالإنسان ، من ترابها خلق ، وهي موطنه ومسكنه ، والأرض أحد الكواكب السيارة التي ادخر الله فيها أقوات الخلق ، وجعل معاشهم على سطحها ، وأمرهم بالسعي في جنباتها . والأرض منحة الخالق للمخلوق ، تحمل الناس على ظهرها ، وتؤمن لهم الاستقرار ، وتمنحهم السكينة ، وتعطيهم الخير العميم ، والزاد الكافي ، والإنتاج الوفير .

والأرض واسعة وكبيرة ، بعيدة الأطراف ، عميقة الأغوار ، كثيرة الطبقات ، متنوعة التركيب ، وفي كل شيء منها آية لله وسر من أسراره ، ودلالة على عظمته .

ومع ذلك فإن الله تعالى ربط الاستفادة من الأرض بعمل الإنسان وسعيه ، فالأرض لا تمنح خيراتها سدى ، ولا توزع إنتاجها عبثاً ، لذلك طلب الله تعالى من الإنسان أن يضرب في الأرض ، ويسعى في البر والبحر ، واستخلفه بها لإعمارها ، ونتيجة لذلك صارت الأرض شغل الإنسان الشاغل منذ القديم ، وأصبحت ملكيّة الأرض ظاهرة اجتماعية رافقت الإنسان في كل عصر وزمان ، وأخذ توزيع الأرض مكاناً مهماً في أعمال الدول ، واحتلت الأرض مركزاً بارزاً في الاقتصاد .

أهمية الأرض في الاقتصاد :

يمثل الاقتصاد العمود الفقري في حياة الأمم والشعوب ، وله أثر كبير وفعال في المجتمع ، ويأتي في مقدمة الأولويات التي تهتم بها الدول .

ويقوم الاقتصاد على ثلاث دعائم رئيسية ، وهي الزراعة والصناعة والتجارة ، وتتبوأ الأرض مكاناً مهماً في كل منها ، كما تتبلور النشاطات الاقتصادية على وجه الأرض التي تعدّ الوعاء الكبير لتفاعل البشر مع الحياة ، فالأرض ذات صلة

كبيرة بالتجارة ، والصناعة تعتمد على الأرض في بناء المصانع والمعامل ، واستخراج مادة البناء ، واستمداد المعادن والثروات منها .

أما الزراعة فترتكز أساساً على الأرض ، وإن ازدهار الزراعة يحقق الاكتفاء الذاتي للدولة ، ويؤمن المحاصيل والمواد الضرورية للمجتمع ، وإن فاضت المحاصيل عن الحاجة قامت الدولة بالتصدير ، أما إن كانت الزراعة مهملة ، والإنتاج قليلاً ، والمحصول ضعيفاً ، فإن ذلك يؤثر في مكانة الدولة ، ويضطرها إلى التبعية والخضوع للشروط المفروضة عليها في سبيل الحصول على الغذاء لشعبها ، ويظهر هذا الأثر الخطير في حالات السلم والحرب ، والبناء والإعمار ، والأمن والاستقرار ، والنهضة والتقدم ، والتعليم والتصنيع .

الواقع المؤلم والآثار الخطيرة :

والأرض ـ اليوم ، وفي العالم أجمع ـ قسمان ؛ قسم مستثمر بالزراعة واستخراج الخيرات والمعادن ، والصناعة والبناء ، وقسم مهمل دون استثمار ، ويكاد أن يكون هذا

القسم هو الأكبر والأوسع على إطار الكرة الأرضية عامة ، وفي العالم العربي والإسلامي خاصة .

ومع أن القسم الأكبر من الأرض مهمل وغير مستثمر فإن الدول والحكومات والمنظمات والقبائل والشعوب والأفراد يتنازعون على القسم الأول المستثمر ، ويتقاتلون عليه ، ويقع فيه الغصب والسرقة ، والمصادرة والاحتلال ، والاستيلاء والاستعمار ، بينما يقل الأمر ـ نسبياً ـ بالقسم غير المستثمر ، وهو ما يسمى في الاصطلاح الفقهي « الأرض الموات » .

وفي الوقت ذاته تنتشر البطالة والفقر في أغلب أنحاء العالم ، ويموت الناس جوعاً في عدة مناطق ، بسبب المجاعة ، ويخيل لبعضهم أن هذه الملايين خلقت دون رزق ، وأنه ليس لها رازق ـ والعياذ بالله ـ وينطبق على هذا الوضع قول الشاعر العربي :

كالعير في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

اهتمام الشرع بالأرض :

وقد اهتم المشرع الإسلامي بالأرض ، وأعطاها حقها من الرعاية والعناية ، ووجه الأنظار إليها ، وأمر في السعي

نحوها ، والاستفادة منها ، وتكرر لفظ الأرض في القرآن الكريم إحدى وخمسين وأربعمائة مرة .

فالأرض خزان الينابيع ، ومصدر الماء الذي تتوقف عليه الحياة ، فقال تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : ١٢] .

فالله سبحانه وتعالى ينزل المطر من السماء فيحيي الأرض بعد موتها ، ويخرج خيراتها للناس ، فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

[النحل : ٦٥]

وإن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض الجبال الراسيات والبحار والأنهار ليسخرها لخدمة الإنسان وأغراضه ، ويستخرج منها الحلية والزينة والطعام ، فقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾

[إبراهيم : ٣٣]

والله جعل الأرض واسعة لمنح الإنسان الحرية في الحياة ، فينقذ نفسه من الذل والاستكانة والتبعية ، فإن ضاق به مكان هاجر إلى أرض أخرى لينعم بالعيش الرغيد ، قال

تعالى : ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء : ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت : ٥٦] .

وذكر القرآن الكريم أن الأرض مقر للخير ، ومستقر للنفع ، فقال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧] ، وأن الأرض مع السماء مصدر للخيرات والبركات ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

ونبه القرآن الكريم على أن الأرض تنبت الزرع والبقول طعاماً للإنسان ، فقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس : ٣٣-٣٥] .

كما أن الله تعالى أخرج من الأرض الشجر المثمر ليكون غذاء طيباً للإنسان ، فقال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ [الرعد : ٤] .

وأكد القرآن الكريم أن الله خلق الأرض للإنسان ،

وسخرها له ، وأودع فيها الخيرات من أجله ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

وبين القرآن الكريم أن الله تعالى أنعم على الإنسان بخلافته في الأرض ليمارس الأعمال الصالحة ، وينفذ شرع الله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وأهم من كل ذلك أن القرآن الكريم صرح بأن الله وضع الأرض ، وذللها لهم للاستفادة منها ، وأمرهم بالسعي فيها ، والضرب في أرجائها ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] . ثم حرض القرآن الكريم على إثارة الأرض ، وإصلاحها وتعميرها وبنائها والاستيطان في سهولها وجبالها فقال تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

[الأعراف : ٧٤]

وأخيراً فقد حث القرآن الكريم الناس على النظر في الأرض ، والبحث في أغوارها ، والتنقيب عن خيراتها ، للاستفادة من ذلك ، ولمعرفة عظمة الله في خلقه ، وأسرار كونه ، فقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] ، وقال تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٠ـ٢١] .

عمارة الأرض في الإسلام :

تبين لنا أن الأرض مصدر الخيرات ، ووسيلة الإنتاج ، لكن الإنتاج في الزراعة وغيره يتم بعمل الإنسان ، ويتوقف على تفكيره وتقديره ، وتخطيطه وسعيه ، وإنفاقه وبذله ، لذلك دعاه الإسلام أن يقوم بهذه الأعمال ، وحثه على مباشرتها ، وأثابه على أدائها ، لأنها تعود بالنفع والخير عليه وعلى الأمة أجمع ، وعلى الكون والمخلوقات بصورة أعم في تعمير الأرض والاستخلاف فيها .

وبما أن معظم الناس لا يملكون الأرض ، وأن معظم

الكرة الأرضية مهجورة ، فقد دعاهم الإسلام إلى إصلاح الأراضي البور ، وإحياء الأرض الميتة ، لزيادة رقعة الأرض المزروعة والمعمورة ولتخفيف الضغط على الأماكن القريبة من المدن والقرى ، ولإزالة الاختلافات والنزاعات على أرض محصورة ، وبقعة محدودة ، ولحماية الملكية المحترمة ، وصيانة الأرض المستثمرة في أيدي أصحابها ، وينطلق الآخرون إلى أرض جديدة ، قد تفوق الأولى في عطائها وخيراتها ، كما تفوقها في السعة والبحبوحة .

ورغب الشرع الحنيف بالغرس والزرع عامة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة » وزاد مسلم : « إلى يوم القيامة »[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يغرس غرساً إلا

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٣) ، ومسلم (١٠/ ٢١٤) ، والترمذي (٤/ ٦٣٦) ، والدارمي (٢/ ٢٦٩) ، والإمام أحمد (٣/ ١٤٧ ، ١٩٢ ، ٦/ ٤٢٠ ، ٤٤٤) .

كتب الله عز وجل له من الأجر ما يخرج من ثمر ذلك الغراس »[1] .

وقال ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السَّبُع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة »[2] .

قال النووي : « في هذه الأحاديث فضيلة الغرس وفضيلة الزرع ، وأن أجرها على ذلك مستمر مادام الغرس والزرع ، وما تولد منه إلى يوم القيامة . . . » ثم قال : « وقد اختلف العلماء في أطيب المكاسب وأفضلها ، فقيل التجارة ، وقيل الصنعة باليد ، وقيل الزراعة ، وهو الصحيح »[3] .

قال السرخسي : « وأكثر مشايخنا رحمهم الله على أن الزراعة أفضل من التجارة لأنها أعم وأنفع ، فبعمل الزراعة يحصل ما يقيم المرء به صلبه ، ويتقوى على طاعة الله . . .

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٤١٥) .
(٢) رواه مسلم عن جابر (١٠/ ٢١٣) .
(٣) النووي على صحيح مسلم (١٠/ ٢١٣) .

ولأن الصدقة في الزراعة أظهر »[1] .

وأكد القائلون بتفضيل الزراعة رأيهم بأن الاكتساب بالزراعة يتضمن التفويض لله تعالى ، والتوكل الكامل عليه ، بعد أخذ الأهمية وحرث الأرض وسقايتها ، واتقاء آفاتها ، ثم يتوقف المحصول والإنتاج على إرادة الله[2] .

ورغب رسول الله ﷺ بالبناء على الأرض والغراس فيها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من بنى بنياناً من غير ظلم ولا اعتداء ، أو غرس غرساً من غير ظلم ولا اعتداء ، كان له أجر جار ما انتفع به خلق الله تعالى »[3] .

وروى محمد بن الحسن قال : « وفي الآثار أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض أتاه جبرائيل عليه السلام بالحنطة ، وأمره بأن يزرعها ، فزرعها وسقاها وحصدها ، ودرسها وطحنها وخبزها »[4] ، وأن اصطلاح الأرض

---

(١) الكسب ، محمد بن الحسن الشيباني ، بشرح السرخسي ، ص ٦٤ .
(٢) أبو زهرة ص ٤٤ ، الوصابي ص ٨ .
(٣) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٣٨) .
(٤) الشيباني ص ٣٥ .

وإعمارها وزراعتها لا تعود بالنفع على صاحبها فحسب ، بل يمتد نفعها إلى الناس أجمع ، وكل ما كان نفعه أعم فهو أفضل ، لقوله ﷺ : « خير الناس أنفعهم للناس »[1] ، ولذلك قال بعض الفقهاء : الاشتغال بالكسب أفضل من التفرغ للعبادة ، والمقصود بالعبادة معناها الخاص كالنوافل والأذكار .

وهذه النصوص والآثار التي تبين فضل الزراعة والبناء والإعمار تشمل الأراضي المملوكة للأشخاص ليقوموا بشأنها ، ويسعوا لزراعتها وإعمارها والبناء عليها ، كما تشمل الأراضي الميتة التي لا يملكها أحد ، ولم يستفد منها إنسان ، فتدعو الشريعة إلى إصلاح هذه الأرض وإحيائها بالبناء والعمارة والزراعة والغرس ، فتزيد رقعة الأرض المعمورة ، وتتوسع مساحة الأرض المزروعة ، وتقل الأراضي المهملة ، ويزيد الاستثمار والإنتاج ، ويعم الخير والنفع ، ويفتح المجال أمام الناس للعمل ، ويقل عدد العاطلين ، وهو

---

(١) رواه القضاعي عن جابر ، (الفتح الكبير ٢/٩٨) ، وانظر الشيباني ص ٤٨ .

ما يشارك في القضاء على البطالة ، وتخفيف الفقر والفاقة في المجتمع ، ويدفع أخطار القحط ، والموت جوعاً ، وهو ما أراده الشرع باسم « إحياء الموات » وهو محل البحث .

حتى قال العلماء إنّ الزراعة من فروض الكفاية ، لأن أمر الدين والدنيا والمعايش كلها لا تقوم إلا بها ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فإن تركها كل الناس أثموا ، وإن فعلها بعضهم سقط الحرج والإثم عن الباقين[1] .

* * *

(١) الوصابي ص ٩ .